الفصـــل الخامس

أحداث مهمة

في حياة قائد هذه الأمة

لقد كانت حياة النبي سلسلة مستمرة من العمل المستمر المتواصل لنصرة الدين، وإقامة الحق، ونشر معالم الخير فهو @ يدعو ويبذل، ويأمر وينهى، ويحارب ويصالح، يصنع الأحداث ويأخذ القرارات، ليقيم منهج الحق، ويشيد صرح الخير وبالتالي من ينظر في هذه الأحداث يستفيد أيما فائدة، فرسولنا رحمة للعالمين ومنّة للمؤمنين.

إن أحداث السيرة النبوية كلها مهمة ففيها الدروس التربوية النافعة والمواقف الدعوية الناجحة، وفيها النموذج العملي على البذل والعطاء، وكيف يستفاد من المواقف المختلفة في نصرة الدين وإقامة الحق، ولكن يصعب في مثل هذه الرسالة اللطيفة استقصاء الكثير من هذه المواقف، ولكن لنأخذ بعض الأحداث المهمة في حياة قائد هذه الأمة ونستلهم منها الدروس والعبر.

الحدث الأول: شق الصدر

وقع هذا الحدث العظيم كما العلامة المباركفوري في كتابه القيم الرحيق المختوم (١/ ٣٧) في السنة الرابعة من مولده على قول المحققين، وفي ذلك روى مسلم عن أنس: أن رسول الله @ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه -أي جمعه وضم بعضه إلى بعض- ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعنى ظئره- فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون -أي متغير اللون- قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

والحكمة من ذلك -كما قال الدكتور الصلابي في كتابه السيرة النبوية دروس وعبر (٣/ ٥٩)-: أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثمًا، ولم يسجد لصنم، رغم انتشار ذلك في قريش.

الحدث الثاني: بناء الكعبة وتحكيم النبي في وضع الحجر الأسود

وقع هذا الحدث وعمره @ خمس وثلاثين سنة عندما قامت قريش ببناء الكعبة، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله @، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، وهذا حَلٌّ حصيف رضي به القوم.

وفي هذا الحدث دلالة على مكانة النبي المرموقة في قومه قبل بعثته؛ بحيث يحتكمون إليه في مثل هذا الأمر الخطير ويرضون بحكمه وفيه دليل على رجحان عقله وصحة رأيه وقوة بصيرته.

الحادث الثالث: حادث بدء الوحي

١-إن هذا الحادث العظيم كبير جدًّا وضخم حقا وفي هذا يقول المفسر الملهم سيد قطب رحمه الله إنه حادث ضخم جدًّا. ضخم إلى غير حد، إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعًا.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد -بغير مبالغة- هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

وحقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم -في عليائه- فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض. وكرّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته،

ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده -سبحانه- لهذه الخليقة.

٢- حديث بدء الوحي رواه البخاري [٣]عن عائشة ل قالت: أول ما بدئ به رسول الله @ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنَّث فيه - وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١: ٣]»، فرجع بها رسول الله @ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زَمِّلُونى زملونى**»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: «**ما لي؟**» فأخبرها الخبر، «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة -وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي- فقالت له خديجة: يابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله @ خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله @: «**أو مخرجيّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي، وفَتَرَ الوحي.

١- في هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله هي الأمر بالقراءة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، ومازال الإسلام يحث على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله ويميزهم على غيرهم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

٢-- إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية حيث تلقَّى النبي @ كلام الله (القرآن) بواسطة المَلَك جبريل -عليه السلام- وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني إن الوحي يتم من خارج ذات النبي @، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحي وتبليغه وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله @.

الحادث الرابع: إسلام عمر بن الخطاب ﷺ

١- كان إسلامه في ذي الحجة سنة ست من النبوة، وكان النبي @ قد دعا الله تعالى لإسلامه، فقد أخرج الترمذي (٢٩٠٧) عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي @ قال: «**اللّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام**» [الطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٩/ ١٠٣١٤)، والأوسط (١٨٦٠)] فكان أحبهما إلى الله عمر ﷺ.

٢- وقصة إسلامه باختصار: أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبي @، فلقيه نعيم بن عبد الله العدوي أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا. قال: كيف تأمن من بني هاشم، ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وخَتَنَكَ قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامرًا حتى أتاهما، فقال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمر، أرأيت إن

كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئًا شديدًا. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمي وجهُها -وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها- فقالت وهي غضبى: يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأي ما بأخته من الدم ندم واستحيا، ثم طلب منهم الصحيفة التي فيها القرآن، فقرئت عليه، ثم ذهب إلى رسول الله @ وأسلم [رواه الحاكم ٦٨٩٧].

الحادث الخامس: الإسراء والمعراج

- لقد وقع هذا الحادث العظيم في ظروف صعبة كان يمر بها الرسول ودعوته؛ من تضييق، وحصار، وقتل، وتشريد، ووفاة أبي طالب وخديجة، فالأول هو المدافع الكريم، والثانية هي الصدر الحنون، فجاء الإسراء تسلية للرسول الأكرم وهدية للنبي الأعظم؛ ولهذا الحادث العظيم دلالات كبيرة نعرفها عندما نتدبر قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وجُمع له الأنبياء في بيت المقدس فَأمّهم في مَحِلّتهم، ودارهم، فدل كما قال ابن كثير في التفسير على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

- لقد كان الإسراء رحلة لم يسبق لبشر أن قام بها، وقد كانت انطلاقتها من المسجد الحرام في مكة المكرمة، وأوَّل محطَّة لها في المسجد الأقصى ببيت المقدس، بينما كانت آخر محطَّاتها سدرة المنتهى فوق السموات السبع وتحت العرش، لقد عرج بالنبي عليه الصلاة والسلام إلى عوالم السماء حيث شاهد ما لا يمكن لبشر أن يراه، لقد منح الله تعالى النبي @ في هذه الرحلة عطاءً روحيًّا عظيمًا، تثبيتًا لفؤاده، ليتمكَّن من إتمام مسيرته في دعوة الناس إلى الإسلام.

والحكمة من الإسراء: بيّنها الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ ﴾

[الإسراء: ١]، وهذه سنة الله في الأنبياء، قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه: ٢٣]، وقد بين مقصود هذه الرؤية بقوله: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبئون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب.

الحادث السادس : هجرة النبي @

- لقد كان للهجرة المباركة طلائع ومقدمات فبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر أذن رسول الله @ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن، ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

- اختار النبي رفيق هجرته الصديق، وفي هذا روى البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله @ للمسلمين: «**أإني أُريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَيْن**»؛ وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله @: «**على رِسْلِك، فإني أرجو أن يؤذن لي**»، فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله @ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمَر -وهو الخَبَطُ- أربعة أشهر [رواه البخاري (٣٦٩٢)].

- لما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله @ قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج أصابتهم الكآبة والحزن، فشعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم، فصاروا يبحثون عن أنجح

الوسائل لدفع هذا الخطر الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد @، وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م -أي بعد شهرين ونصف تقريبًا من بيعة العقبة الكبرى- عقد برلمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار أخطر اجتماع له في تاريخه، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعًا على حامل لواء الدعوة الإسلامية.

- في هذه الأثناء نزل جبريل عليه السلام إلى النبي @ بوحى من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبيّن له خطة الرد على قريش، فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. فذهب النبي @ في الهاجرة إلى أبي بكر ﷺ ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة ل : بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله @ متقنعًا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

- ثم غادر رسول الله @ بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢/ ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م. وأتى إلى دار رفيقه -وأمنّ الناس عليه في صحبته وماله- أبي بكر ﷺ. ثم غادر منزل الأخير من باب خلفي؛ ليخرجا من مكة على عجل وقبل أن يطلع الفجر وإمعانا في التمويه على قريش لم يسلك النبي طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالًا، فسلك الطريق الذي يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثَوْر.

- وقد جد المطاردون في البحث عن النبي حتى وصلوا إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبي @ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: «**اسكت يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما**» [رواه البخاري (٣٧٠٧)]،

وفي لفظ: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» [رواه البخاري (٣٤٥٣)].

وفي حادث الهجرة المباركة الكثير من الدروس والعديد من العبر:

١- حفظ الله لجنده وأوليائه في المواقف الصعبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

٢- إن النجاح منوط بعد التوكل بالأخذ بالأسباب، بل بأحسنها، وتأمل ذلك في حسن إعداد النبي للهجرة من اتخاذ الرفيق، وإعداد الرواحل، والتمويه على العدو، وحسن الحيطة، وتمام الحذر.

الحادث السابع: بناء المسجد النبوي:

وأول خطوة خطاها رسول الله @ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته @، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول:

اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل، حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قَعَدْنا والنبي يَعْمَل لذاك مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّل

-لم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية، وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار، ولا مال، ولا أهل، ولا بنون.

الحادث الثامن: غزوة بدر الكبرى

سبب الغزوة:

أن عيرًا لقريش في ذكر غزوة العشيرة أفلتت من النبي @ في ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله @ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله @ الخبر فقال رسول الله @: «**هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**».

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله @ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا -٣١٣، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلًا- ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيض.

وكان قوام الجيش المكي نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة دِرْع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل ابن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل.

وقيامًا بواجب القائد نحو جنوده قام @ بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق ﷺ فوقف النبي من خلال بعض الأسئلة الذكية على مكان جيش العدو تحديدًا ثم أرسل ثلاثة من قادة المهاجرين؛ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد ابن أبي وقاص في نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض، فسألهما الرسول قائلًا: «**أخبراني عن قريش**»، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما: «**كم القوم؟**» قالا: كثير. قال: «**ما عدتهم؟**» قالا: لا ندرى. قال: «**كم ينحرون**

كل يوم؟» قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا. فقال رسول الله @: «**القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف**»، ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**» قالا: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وحكيم بن حِزام، ونَوْفَل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطُعَيْمَة بن عدى، والنضر بن الحارث، وَزمْعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف في رجال سمياهم.

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بألا يبدءوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب، فقال: «**إذا أكثبوكم** -يعنى اقتربوا منكم- **فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**)» ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

من روائع الإيمان في هذه المعركة

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث -ابن عفراء- وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفى منه غيظه.

وروى البخاري (٢١٧٩) عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي ـ أي خاصتي ومالي ـ بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة... فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس الأنصار فقال: أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه ليشغلهم، فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلًا ثقيلًا، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه. وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه.

- وقتل عمر بن الخطاب ﷺ يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة، ولم يلتفت إلى قرابته منه، ولكن حين رجع إلى المدينة قال للعباس عم رسول الله @، وهو في الأسر: يا عباس أسلم، فوالله أن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله @ يعجبه إسلامك.

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة للمشركين، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قتل منهم سبعون، وأسر سبعون. وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.

الحادث التاسع: غزوة فتح مكة:

وسبب هذه الغزوة: أن بني بكر عهدها مع خزاعة، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح؛ وذلك بمخالفة بعض بنود صلح الحديبية، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم. فلعمري إنكم لتَسرِقُون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

- ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك ٨ هـ، غادر رسول الله @ المدينة متجهًا إلى مكة، في عشرة ألاف من الصحابة ش، فقابله أبو سفيان ابن الحارث، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ثم عفا عنهما، قائلا: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وقال لأبي سفيان: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**».

-ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله @ في الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: «**أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق**

السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله @ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

قال ابن القيم عن فتح مكة: «هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه، ورسوله، وجنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده، وبيته الذي جعله هدي للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا» ا. هـ.

إذا نظرنا إلى غزوات النبي @ علمنا منها أمورا كثيرة منها:

١-إن النبي @ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأشدهم وأعمقهم فراسة وتيقظًا، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيها الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلطة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية.

٢- شرع النبي ﷺ للحروب قواعد شريفة ألزم بها قواده، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روي سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله @ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوي الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، فلا تغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا...**» الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: «**يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا**».وغير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهادًا مقدسًا.

الحادث العاشر: قدوم الوفود

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفدًا، ولا يمكن لنا استقصاءها، ولكن نذكر هنا بعضها

١- وفد عبد القيس:

كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له مُنْقِذُ بن حيان، يَرِدُ المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي @، وعلم الإسلام أسلم، وذهب بكتاب من النبي @ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلًا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله @: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

٣- رسول فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي:

كان فروة قائدًا عربيًّا من قواد الرومان، عاملًا لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعد ما رأي من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨ هـ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله @ رسولًا بإسلامه، وأهدي له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له: عفراء، وضربوا عنقه.

٦- وفد عُذْرَة:

قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ، وهم اثنا عشر رجلًا فيهم حمزة بن النعمان، قال متكلمهم حين سئلوا (من القوم؟): نحن بنو عُذْرَة، إخوة قُصَي لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبي @، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها. أسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

٧- وفد يَلي:

قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا، وقد سأل رئيسهم أبو الضُّبَيْب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله @: «**نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة**»، وسأل عن وقت الضيافة، فقال: «**ثلاثة أيام**»، وسأل عن ضالة الغنم، فقال: «**هي لك أو لأخيك أو للذنب**»، وسأل عن ضالة البعير. فقال: «**مالك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه**».

١٠ ـ وفد همدان:

قدموا سنة ٩هـ بعد مرجعه @ من تبوك، فكتب لهم رسول الله @ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمَّر عليهم مالك بن النَّمَطَ، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث على بن أبي طالب، وأمره أن يَقْفُلَ خالدًا، فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله @، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول @، فلما قرأ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**».

١١ ـ وفد بني فَزَارَة:

قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه @ من تبوك، قدم في بضعة عشر رجلاً جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم، فصعد رسول الله @ المنبر، فرفع يديه واستسقى وقال: «**اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحْي بلدك الميت، اللهم اسقنا غَيْثًا مُغِيثًا، مريئًا مَرِيعًا، طَبَقًا واسعًا، عاجلًا غير آجل، نافعًا غير ضار، اللّهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولاهَدْم ولا غَرَق ولا مَحْق، اللّهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء**».

الحادث الحادي عشر: حجة الوداع

- تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد @، وكأن هاتفًا خفيًا انبعث في قلب رسول الله @، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذًا على اليمن سنة ١٠هـ قال له ـ فيما قال: «يا معاذ، إنك عسي ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري»، فبكي معاذًا خشعًا لفراق رسول الله @.

-أعلن النبي @ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله @. وفي يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة تهيأ النبي @ للرحيل، فترَجَّل وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه وقَلَّد بُدْنَه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحُلَيْفَة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: «**أتاني الليلة آت من ربي فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة**».

- وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذَرِيرَة، وطيب فيه مِسْك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبَيصُ الطيب يري في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلي الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مُصَلاَّه، وقَرَن بينهما، ثم خرج، فركب القَصْوَاءَ، فأهَلَّ أيضًا، ثم أهَلَّ لما استقلت به على البَيْدَاء.

- ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذي طُوَي، ثم دخل مكة بعد أن صلي الفجر، واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠هـ -وقد قضي في الطريق ثماني ليال، وهي المسافة الوسطي- فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، ولم يَحِلَّ؛لأنه كان قارنًا قد ساق معه الهدي، فنزل بأعلى مكة عند الحَجُون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف

الحج.

- وأمر من لم يكن معه هَدْي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا المروة، ثم يحلوا حلالًا تامًا، فترددوا، فقال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت**»، فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

- وفي اليوم الثامن من ذي الحجة ـ وهو يوم التَّرْوِيَة ـ توجه إلى مني، فصلي بها الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر ـ خمس صلوات ـ ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتي عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بَنَمِرَة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقَصْوَاء فرحلت له، فأتي بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفًا من الناس، فقام فيهم خطيبًا، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

- «**أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا**».

- «**إن دماءكم، وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث** -وكان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل- **وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله. فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله**».

«**أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت**

ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم».

- «**وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت،وقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد**» ثلاث مرات.

- وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله @ بالناس الظهر، ثم أقام فصلي العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب حتى أتي الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصَّخَرَات، وجعل حَبْل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القُرْص.

- وأردف أسامة، ودفع حتى أتي المُزْدَلِفَة، فصلي بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلي الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتي المَشْعَرَ الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهلّله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أَسْفَر جِدّا.

فَدَفَع -من المزدلفة إلى مني- قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتي بَطْنَ مُحَسِّرٍ، فَحَرَّك قليلًا، ثم سلك الطريق الوسطي التي تخرج على الجمرة الكبري، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة -وهي الجمرة الكبري نفسها، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان، وتسمي بجمرة العَقَبَة وبالجمرة الأولي- فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصي الخَذْف، رمي من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطي عليًا فنحر ما غَبَرَ -وهي سبع وثلاثون بدنة، تمام المائة- وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قِدْر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مَرَقِها.

- ثم ركب رسول الله @، فأفاض إلى البيت، فصلي بمكة الظهر، فأتي على بني المطلب يَسْقُون على زمزم، فقال: «**انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**»، فناولوه دلوًا فشرب منه.

- وخطب النبي @ يوم النحر -عاشر ذي الحجة- أيضًا حين ارتفع الضحي، وهو على بغلة شَهْبَاء، وعلى يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد، وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي @ يوم النحر، قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادي وشعبان**».

- وقال: «**أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلي؟ قال: «**أي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليست البلدة؟**» قلنا: بلي. قال: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلي. قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**».

- «**وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالًا يضرب بعضكم رقاب بعض**».«**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعي من سامع**».

- وأقام أيام التشريق بمني يؤدي المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدي من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها.

- وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضًا، فقد روي أبو داود بإسناد حسن عن سَرَّاءِ بنت نَبْهَانَ قالت: خطبنا رسول الله @ يوم الرءوس، فقال: «**أليس هذا أوسط أيام التشريق**». وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

- ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله.

إلى الرفيق الأعلي

طلائع التوديع

ولما تكاملت الدعوة، وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره @، وتتضح بعباراته وأفعاله، ومن ذلك إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: «**إني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا**»، وقال -وهو عند جمرة العقبة: «**خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا**»، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعيت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي @ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**».

وخرج ليلة ـ في منتصفها ـ إلى البَقِيع، فاستغفر لهم، وقال: «**السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولي**»، وبشرهم قائلًا: «**إنا بكم للاحقون**».

بداية المرض

وفي اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة١١هـ -وكان يوم الاثنين- شهد رسول الله @ جنازة في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سَوْرَتَها فوق العِصَابة التي تعصب بها رأسه.

الأسبوع الأخير من حياة سيد المرسلين.

وثقل برسول الله @ المرض، فجعل يسأل أزواجه: «**أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟**» ففهمن مراده، فأذن له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة يمشي بين الفضل بن عباس، وعلى بن أبي طالب، عاصبًا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله @، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع وغمي، فقال: «**اهريقوا علي سبع قِرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم**»، فأقعدوه في مِخَضَبٍ، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: «**حسبكم، حسبكم**».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفًا ملحفة على منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثني عليه، ثم قال: «**أيها الناس، إلي**»، فثابوا إليه، فقال -فيما قال:- «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وفي رواية: «**قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقال: «**لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد**».

وعرض نفسه للقصاص قائلًا: «**من كنت جلدت له ظَهْرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عِرْضًا فهذا عرضي فليستقد منه**».

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها. فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: «**أعطه يا فضل**»، ثم أوصى بالأنصار

ثم قال: «**إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده،**

فاختار ما عنده». قال أبو سعيد الخدري: فبكي أبو بكر. قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله @ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله @ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا.

ثم قال رسول الله @: «**إن من أمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر**».

قبل أربعة أيام

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال ـ وقد اشتد به الوجع:- «**هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده**» -وفي البيت رجال فيهم عمر- فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله @، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله @: «**قوموا عني**».

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصاري والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوي. ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هي: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**».

والنبي @ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم -يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام- وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفًا.

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد. قالت عائشة: فقال النبي @: «**أصَلَّى الناس؟**» قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: «**ضعوا لي ماء في المِخْضَب**»، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم

أفاق، فقال: «**أصلى الناس؟**» -ووقع ثانيًا، وثالثًا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال، ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء- فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام ١٧ صلاة في حياته @، وهي صلاة العشاء من يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الإثنين، وخمس عشرة صلاة فيما بينها.

وراجعت عائشة النبي @ ثلاث أو أربع مرات؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر حتى لا يتشاءم به الناس، فأبي وقال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

قبل ثلاثة أيام

قال جابر: سمعت النبي @ قبل موته بثلاث وهو يقول: «**ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله**».

قبل يوم أو يومين

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي @ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بألا يتأخر، قال: «**أجلساني إلى جنبه**»، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله @ ويسمع الناس التكبير.

آخر يوم من الحياة

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين -وأبو بكر يصلي بهم- لم يفجأهم إلا رسول الله @ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله @ يريد أن يخرج إلى الصلاة. فقال أنس: وهَمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فَرَحًا برسول الله @، فأشار إليهم بيده رسول الله @ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

ثم لم يأت على رسول الله @ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي @ فاطمة فسَارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها، فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك -أي فيما بعد- فقالت: سارني النبي @ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وبشر النبي @ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة ما برسول الله @ من الكرب الشديد الذي يتغشاه.

فقالت: واكرب أبتاه. فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**».

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكَّرهن.

وأوصى الناس فقال: «**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»، كرر ذلك مرارًا

الاحتضار

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله @ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْرِي ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن بن أبي بكر -وبيده السواك- وأنا مسندة رسول الله @، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولته فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته، فأمره -وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستنا- وبين يديه رَكْوَة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه، يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات...**» الحديث.

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلي. اللهم، الرفيق الأعلي**».

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلي. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له @ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

وفي يوم الثلاثاء غسَّلوا رسول الله @ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل: العباس وعليّا، والفضل وقُثَم ابني العباس، وشُقْرَان مولى رسول الله @، وأسامة بن زيد، وأوس بن خَوْلي، فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره.

وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسِدْر، وغسل من بئر يقال لها: الغَرْس لسعد بن خَيْثَمَة بقُبَاء وكان يشرب منها.

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سَحُولِيَّة من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة. أدرجوه فيها إدراجًا.

مات رسول الله ﷺ بعد حياة حافلة سار فيها على الصعاب؛ لإقامة الدين ونصرة الحق، والأخذ بيد الناس كل الناس إلى السعادة في الدنيا، والفلاح في الآخرة فيا ترى ما هو واجبنا نحو هذا النبي العظيم ؟ والجواب على هذا السؤال؛ نعرفه في الفصل التالي.